

الوافي في الوفيات

ومعه الأتابك وبيسري وقلاوون والخرندار وجماعة من خواصه ودخل قلعة الجبل سبع عشر ذي القعدة وجلس في إيوان القلعة وكتب إلى الأشرف صاحب حمص وإلى المنصور صاحب حماة وإلى مظفر الدين صاحب صهيون وإلى الإسماعيلية وإلى علاء الدين ابن صاحب الموصل نائب حلب والي من في الشام يعرفهم ما جرى وأفرج عمن في الحبوس من أصحاب الجرائم وأقر صاحب زين الدين بن الزبير على الوزارة وكان قد تلقب بالملك القاهر فقال له صاحب زين الدين ابن الزبير : ما لقب أحد بالملك القاهر فأفلح لقب به القاهر بن المعتضد فلم تطل أيامه وخلع ثم سمل ؛ وتلقب به القاهر ابن صاحب الموصل فسم ولم تزد أيامه في المملكة على سبع سنين فأبطل الملك القاهر وتلقب بالظاهر . وزاد إقطاعات من رأى استحقاقه من الأمراء وخلع عليهم . وسير آفوش المحمدي بتواقيع الأمير علم الدين الحلبي فوجده قد تسلطن بدمشق فشرع الظاهر في استفساد من عنده فخرجوا عليه ونزعوه من السلطنة وتوجه إلى بعلبك فأحضره منها وتوجهوا به إلى مصر . وصفا الملك بالشام للملك الظاهر . وضبط الأمور وساس الملك أتم سياسة وفتح الفتوحات وباشر الحروب بنفسه . ومعه الأتابك وبيسري وقلاوون والخرندار وجماعة من خواصه ودخل قلعة الجبل سبع عشر ذي القعدة وجلس في إيوان القلعة وكتب إلى الأشرف صاحب حمص وإلى المنصور صاحب حماة وإلى مظفر الدين صاحب صهيون وإلى الإسماعيلية وإلى علاء الدين ابن صاحب الموصل نائب حلب والي من في الشام يعرفهم ما جرى وأفرج عمن في الحبوس من أصحاب الجرائم وأقر صاحب زين الدين بن الزبير على الوزارة وكان قد تلقب بالملك القاهر فقال له صاحب زين الدين ابن الزبير : ما لقب أحد بالملك القاهر فأفلح لقب به القاهر بن المعتضد فلم تطل أيامه وخلع ثم سمل ؛ وتلقب به القاهر ابن صاحب الموصل فسم ولم تزد أيامه في المملكة على سبع سنين فأبطل الملك القاهر وتلقب بالظاهر . وزاد إقطاعات من رأى استحقاقه من الأمراء وخلع عليهم . وسير آفوش المحمدي بتواقيع الأمير علم الدين الحلبي فوجده قد تسلطن بدمشق فشرع الظاهر في استفساد من عنده فخرجوا عليه ونزعوه من السلطنة وتوجه إلى بعلبك فأحضره منها وتوجهوا به إلى مصر . وصفا الملك بالشام للملك الظاهر . وضبط الأمور وساس الملك أتم سياسة وفتح الفتوحات وباشر الحروب بنفسه .

وكان جباراً في الأسفار والحصارات والحروب وخافه الأعادي من التتار والفرنج وغيرهم لأنه روعهم بالغارات والكبسات وخاص الفرات بنفسه فألقت العساكر بأ نفسها خلفه ووقع التتار فقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر تقدير مائتي نفس وفي ذلك قال محيي الدين ابن عبد الظاهر :

تجمع جيش الشرك من كل فرقة ... ووطنوا بأنا لا نطيق لهم غلبا .
وجاءوا إلى شاطي الفرات وما دروا ... بأن جياد الخيل تقطعها وثبا .
وجاءت جنودا في العدد التي ... تميمس بها الأبطال يوم الوغى عجا .
فعمنا بسد من حديد سباحة ... إليهم فما اسطاع العدو له نقبا .
وقال بدر الدين يوسف بن المهمندار : .
لو عاينت عيناك يوم نزالنا ... والخيل تطفح في العجاج الأكر .
وقد اطلخم الأمر واحتدم الوغى ... ووهى الجبان وساء طن المجتري .
لرأيت سداً من حديد مائراً ... فوق الفرات وفوقه نارا تري .
طفرت وقد منع الفوارس مدها ... يجري ولولا خيلنا لم تطفري .
ورأيت سيل الخيل قد بلغ الزبي ... ومن الفوارس أبحراً في أبحر .
لما سبقنا أسهماً طاشت لنا ... منهم إلينا بالخيول الضمر .
لم يفتحوا للرمي منهم أعيناً ... حتى كحلن بكل لدن أسمر .
فتسابقوا هرباً ولكن ردهم ... دون الهزيمة رمح كل غضنفر .
ما كان أجرى خيلنا في أثرهم ... لو أنها برؤوسهم لم تعثر .
كم قد فلقنا صخرةً من صرخة ... ولكم ملأنا محجراً من محجر .
وجرت دماؤهم على وجه الثرى ... حتى جرت منها مجاري الأنهر .
والظاهر السلطان في آثارهم ... يذري الرؤوس بكل غضب أبتري